التمثيل في تصور الفلاسفة

يرى ابن رشد أن: «الناس بالطبع قد يخيلون ويحاكون بعضهم بعضا بالأفعال، مثل محاكاة بعضهم بعضا بالألوان والأشكال والأصوات؛ وذلك إما بصناعة وملكة توجد للمحاكين، وإما من قبل عادة تقدمت لهم في ذلك. كذلك توجد لهم المحاكاة بالأقاويل بالطبع والتخييل»[1]؛ فمحاكاة الناس بعضهم بعضا متنوعة، فقد تكون بالألوان أو الأشكال أو الأصوات أو الأقاويل، وقد تكون بالأفعال. ومقصود بهذه الأخيرة الحركات العملية التي يأتي بها المحاكون تقليدا لغيرهم. وتنوع المحاكيات مرده اختلاف وسائل المحاكاة. وإذ يتم بعض ذلك بالعادة المتأصلة في الإنسان نظرا لميله إلى المحاكاة والتقليد، ويتم بعضها الآخر بصناعة، أمكننا تصور صناعة المحاكاة بالأفعال والحركات كممارسة لها قواعدها وأصولها باعتبارها صنعة، تتجلى بنفس الإدراك لدى ابن سينا: «فإن المحاكاة كشيء طبيعي للإنسان، والمحاكاة هي إيراد مثل الشيء وليس هو هو، فذلك كما يحاكى الحيوان الطبيعي بصورة هي في الظاهر كالطبيعي. ولذلك يتشبه بعض الناس في أحواله ببعض ويحاكي بعضهم بعضا ويحاكون غيرهم. فمن ذلك ما يصدر عن صناعة، ومن ذلك ما يتبع العادة، وأيضا من ذلك ما يكون بفعل، ومن ذلك ما يكون بقول»[2]. وصدور المحاكاة عن صناعة إقرار بنوع من التمثيل المؤسس على قواعد، ذلك أن التشبه بالآخرين وتقليدهم أمر طبيعي في النفس، فإذا تمت ممارسته بالصنعة، صار أسلوبا متقنا ومعروفا، خاصة أن "من ذلك ما يكون بفعل".

ويبدو أن فهم المحاكاة بالشكل السابق وربطه بالتمثيل لم يكن من الأمور التي ابتدعها الفلاسفة، فالعرب كانت: «تستعمل ذلك اللفظ، أعني الحكاية، بمعناه الدال على التمثيل وما يشتق منه»[3]. فالفلاسفة -وقد سبقهم في استعمال المصطلح نفسه أبو بشر متى- يحاولون الاقتراب من حديث أرسطو عن التمثيل بما شاع في بيئتهم منه، ثم تجاوزوا بمصطلح (حكاية) دلالته على التمثيل العملي إلى أشكال إعادة تقديم الموجود فنيا غير أن: «الأصل في الحكاية أن تكون تقليد حركات الآخرين، وإعادتها مما يقرب أن يكون تقمصا لشخصياتهم، إذا شئنا أن نستعمل المصطلح الشائع لدى أهل المسرح اليوم، أو شيئا من ذلك. ثم اتسع هذا المعنى فصارت إعادة أقوال الآخرين، وقص ما وقع لهم حكاية أيضا»[4].

وإذ يرى الفلاسفة أن المحاكاة قد تكون عادة نظرا لميل الناس بالطبع إلى المحاكاة، وقد تكون صناعة -في رأيهم أيضا-، ولعل كونها صناعة يعود إلى إتقان ممارستها لدى فئات المحاكين فـ: «إن المحاكين في العصر الأموي قد تعارفوا على أسلوب من الأساليب في حكاياتهم يضمن لهم أن يتوصل النظارة وهم يشاهدون مشهدا ما، إن المقصود به فلان من الناس دون غيره»[5].

وليس من الغريب أن لا يتقن هذه الأساليب كل الناس، ومن هنا يبدو تخصص بعضهم بالمحاكاة خاصة في العصر العباسي حيث: «إن اختلال الحياة الاقتصادية دفع بطائفة من الناس أن تسلك طريق الهزل سخرية بالوضع مرة، وكسبا لمعايشهم مرة أخرى»[6].

وعلى ذكر الهزل والسخرية، يبدو الارتباط حاسما بين المحاكاة والهزل، وذلك: «أن هدف المحاكاة الرئيس هو الإضحاك، ثم تطور هذا الهدف فاكتسب صبغة اجتماعية وجهته نحو انتقاص الخصوم من خلال محاكاته، والضحك بهم. فلم يعد حينئذ وسيلة لهو تقف عند حدود الضحك دونما غاية اجتماعية، على أن هذا لا يمنع أن يظل الضحك تيارا آخر يخدم التيار الاجتماعي مرة، وينفصل عنه مرة أخرى»[7].

وارتباط القوموذيا بالتمثيل يبدو واضحا في (هيئة وجه المسخرة)؛ حيث تتبدى عليهم علائم الهزل والسخرية عبر الأوصاف التي يحددها ابن سينا، و: «المساخرة، وهم المحاكون، يؤدون حكاياتهم المضحكة»[8]. وارتباط الحكاية المؤداة بالإضحاك يفسر سبب ارتباط القوموذيا في ذهن الفلاسفة بالتمثيل، ذلك أن شيوع هذه الممارسات في البيئة العربية هو الذي حدد تصور القوموذيا لدى الفلاسفة بهذا الشكل، وارتباط ذلك بالسخرية كان وراء وصف ابن سينا للهزل بأنه حكاية صغار، واستعداد سماجة. وإذا كان الدكتور الأعرجي يرى في السماجة نوعا من الحكاية والتمثيل قد لا يصحبه القول أو الخرافة؛ بحيث: «أن أصحاب السماجة يكتفون بتكرار هذه الحركات الكوميدية التي تعارفوا عليها دونما تجديد يذكر»[9]. فإن ابن سينا إذ يعطف استعداد سماجة على حكاية صغار، قد يفهم منه أن حركات السماجة تدعم تمثيلية الهزل، وهذا يعني أن ما يأتيه السماجة سيدعم الهجاء وحكاية الصغار، ذلك أن تسميتهم بأصحاب السماجة ربما: «إشارة إلى تقليدهم الحركات القبيحة لدى الآخرين بهدف انتقاصهم

وإضحاك الناس منهم»[10]؛ ذلك أن الحركات التي يأتيها أهل السماجة قد تكون تدعيما للقول في أن ارتباط المحاكاة بالهجاء يبرره كون: «المحاكاة نقدا لاذعا مرا لا يقل في مرارته عن الهجاء في نظر المجتمع العربي»[11].